الحرب والطبيعة البشرية

للأستاذ محمد أديب العامري

لا يظهر للقارئ من الكلمة [١] التي أرسلها الدكتور محمد حسني ولاية أن السادية Sadism والماسوشية Masochism نزعتان جنسيتان ، مع أن ذلك هو خاصتهما كنزعتين ؛ وإنما يظهر له أن هاتين النزعتين صفتان في البشر عامتان فقط ، وأنهما تكمنان آناً وتبدوان آناً آخر على صورة مصطنعة وفجائية .

وربما كان الدكتور ولاية يحب أن يرد النزعتين مردودتين إلى أصلهما البيولوجي ، ولذلك كان ما يمكن أن يفهم قارئوه من السادية أنها نزعة تعني « أن يهدم الإنسان سواه ليخلو له الجو ويستأثر بالحياة ... أما الماسوشية ، فتعني أن يهدم الإنسان نفسه » .

« ويؤدي العرف في أوقات السلم » في نظر الدكتور أيضاً « إلى أن يكبت الرجل شطراً من ساديته لينسجم مع المرأة والبيئة ، أما في زمن الحرب فتتحكم السادية في العقل الواعي ، وحينئذ يتحكم الحيوان الرابض في الأعماق ... وحين تسير الجيوش للملاقاة العدو يتناسى كل جندي شخصيته ، ويعود إلى ماضيه الفطري ، ويعمل كما كان يعمل آباؤه الأولون ، وهو في هذه الحالة وهذه الإرادة البشرية الأزلية . . . »

وهذه التعاريف والاستنباطات القطعية التي تحمل طابع العلم الذي يؤمن به الناس اليوم ويخضعون له كانت تكون يسيرة الخطر لو أنها — على ضعف مبرراتها — لا تنتهي إلى تثبيت فكرة الويل والدمار والهلاك الزاحفة على قلب العالم ؛ فلا يمكن أن يفهم قراء الدكتور ولاية إلا أن الحرب على شكلها الحاضر متصلة بنزعات بشرية عميقة ، وإلا أن المحارب يشتق نفسيته من هذه النزعات المتأصلة ؛ ومن هنا بطبيعة الحال ستستمر الحرب هكذا ، بل وتشتد جيلاً بعد جيل إلى ما شاء الله !

والذي أرى هو غير هذا في المقدمات وفي النتائج

فالسادية والماسوشية — كما يرى كرافت إبنج Kraft-Ebing وفرويد Freud وغيرهما — إنما هما نزعتان متصلتان بالجنس مباشرة كما سبق أن أشرنا ، وأنهما في حالة بروزهما تعتبران انحرافاً جنسياً [١] — أي نوعاً من أنواع الضعف التناسلي — ويعتبر لخت Licht أن عدم وقوعه على إشارات سادية وماسوشية في المصادر الأدبية اليونانية يدل على أن حياة اليونانيين كانت حياة صحية [٢] (يقصد الحياة التناسلية)

أما تصوير هاتين النزعتين كأنهما دافعان أساسيان للحرب والقتل الدائر اليوم أو مثله ، فليس له مبرر ؛ ولكن الذي له مبرر فيما يظهر هو أن الأصول البيولوجية لهاتين النزعتين ترجع إلى « الحاجة إلى التغلب على أية مقاومة يبديها الهدف الجنسي ، ولا تجدي معها حركات المداعبة » [٣] . وهو تعليل بسيط قريب الصلة بالظاهرة التي نحن بصدد الكلام عنها

أجل ، ترتد النزعتان في نظر بعض العلماء — وهذا إذا تعمدنا تعمقاً أشد — إلى شهوة أكل الإنسان اللحوم البشرية (أي خدمة غريزة حب السيطرة) ، ولكن هذا مشكوك فيه كثيراً كما سيتضح الآن

ومهما يكن من أمر فالمرد الأساسي للسادية والماسوشية غير مؤكد الآن ، ولذلك يرى « فرويد » أن التفاسير الموضوعة لأصول هاتين النزعتين غير كافية ، وأنه من الممكن أن تكون هنالك دوافع نفسية عديدة ومتحدة لتكوين هاتين النزعتين .

وليس صحيحاً أن يقف الناس عند ما انتهى إليه فرويد أو غيره من الثقات ؛ ولكن الدكتور ولاية يقول بأن « كل إنسان — رجلاً كان أو امرأة — يحمل نزعة السادية متوازنة مع نزعة الماسوشية » . وهذه بالطبع حالة الإنسان العادي . ويقول هفلوك إليس Haevlock Ellis أيضاً إن « جميع حالات السادية والماسوشية تبدي آثاراً من النزعتين في الفرد الواحد نفسه [٤]

وواضح من اجتماع النزعتين دائماً في فرد واحد أن وجودهما معاً لا يمكن أن يعزى إلى شهوة العدوان ، ومن ثم غريزة حب السيطرة (دع عنك القتل الإجماعي ـ الحرب) لأن هذا التأويل إن وضح السادية فلن يوضح الماسوشية ، إلا إذا قلنا إن الإنسان يشتهي أن يقتل نفسه ، وهذا يناير ما تنزع إليه غريزة البقاء ، التي لا يرتاب أحد في أصالتها وسيطرتها وشمولها

(١) ص ١٣٢٤ عدد ٤٣٤ من « الرسالة »

(١) Brill, Basic Writings of Freud, 1938

(٢) Licht, Sexual Life of Ancient Greece

(٣) Brill

(٤) Ellis, Sexual impulse, 1903

وإذا كانت الحرب تطوراً للسادية فماذا ترى يكون تأويل دخول المرأة فى معترك الحروب اليوم ؟ وإذا استمرت الحرب أزمنة طويلة قبل أن يكتشف الناس غباوتهم فيها — فلا ريب أن المرأة ستصير جنباً إلى جنب فى الحرب مع الرجل . فهل تصلح للماسوشية ، وهى النزعة المتغلبة فى المرأة ، تأويلاً لمظهر هذه الحرب أيضاً ؟

وخلاصة ما أريد أن أقول هو أن هاتين النزعتين كما نعرف هما اليوم جنسيتان ، وأن أصولها غير مؤكدة . على أنه مهما تكن هذه الأصول فمن المؤكد أنها أصول لا تمت إلى الحرب الإجماعية بسبب

وإذا كان العدوان أصل السادية فإن ذلك لا يعنى أن تتطور هذه النزعة فى اتجاه العدوان متضخمة . إذا تضخمت السادية كانت انحرافاً جنسياً . ذلك نعلمه بالتأكيد . وهفلوك إليس ، وهو من أكبر ثقات المسألة الجنسية ، يرى أن « القتل الإجماعى بالحرب ليس طريقة اجتماعية غير ملائمة لدور الحضارة الحالية فحسب ، بل إنه على الإطلاق لا أساس له فى العالم »

وأرجح الرأى أن الدكتور ولاية يفرض أولاً أن الحرب شىء أزلى أو يتفق مع الطبيعة البشرية ثم يمضى ليجد الأسباب العلمية لهذا الفرض . ولما لم تكن الحرب فى شكلها الحاضر شيئاً يتفق مع الطبيعة البشرية ، ولا مع درجة الحضارة الراهنة للبشر ، على أقل تقدير ، فإن أية محاولة لإقامة هذه الظاهرة — الحرب — على أساس علمية تكون اصطناعية

إن من السهل أن نلاحظ أن الجندى لا يذهب إلى ساحة الحرب راضياً ، وإنما يدفع إليها دفعاً . فإذا ضحى فيها لم يكن عدوانه إلا مظهراً من دفاعه عن نفسه . إنه إن لم يقتل من يواجهه فهو مقتول لا محالة . فقتل غيره هو أضمن السبل لخلاص نفسه . وواضح أيضاً أن الجندى يحب فى كل وقت من أوقات الحرب أن يُسرّح ليعود إلى أمنه وطمأنينته ، سواء أكان الجيش الذى يحارب فيه مغلوباً أو منتصراً

إن الحرب الإجماعية على شكلها الحاضر لا تتصل بالنوازع البشرية أو بالغرائز ، وإنما تقوم لمصلحة أناس محدودين ضاق نظرهم وتمكن الخوف من نفوسهم . وتشمل هذه المصلحة الدوافع النفسية الملتوية والدوافع المادية على السواء . إن سواد الجنود يحارب لغير دافع من نفسه ، فالقتل للقتل صفة غير معروفة . — والدكتور ولاية يرى هذا فيقول إن الجندى عند ما ينعم النظر فى « وعى ذاته ويشعر بأنه شخصية قائمة بذاتها لا تستطيع روحه الاندماج مع الروح التى تقود زملاءه الجنود إلى التلاحم » وهذا القول يقرر أن الوعى البشرى مخالف لروح الحرب التى يظن القارىء لمقال الدكتور أنها أزلية فتستمر أبد الدهر مستمدة نفسها من أعماق الطبيعة البشرية .

(السلط) محمد أديب العامرى

إلى ذوى المغناطيسية والى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تملك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بعمرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .